أوّل من قال «سبحان ربّي الأعلى» ميكائيل

موجز في تفسير سورة الأعلى

سليمان بيضون

*** السورة السابعة والثمانون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «التكوير».**

*** سُمّيت بـ«الأعلى» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.**

*** آياتها تسع عشرة، وهي مكيّة، وفي الحديث النبويّ الشريف أنّ مَن قرأها «أعطاه الله عشر حسنات بعدد كلّ حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمّد [عليهم السلام]».**

*** ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).**

اسم «الأعلى» لله تعالى معناه: الذي يعلو كلّ عالٍ، ويقهر كلّ شيء، فهو الأعلى من كلّ أحد، ومن كلّ ما يُتصوّر لذاته المقدّسة، أو تخيّل لها، أو قياس، أو ظنّ، أو وهم، ومن أيّ شرك جليّ أو خفيّ.

محتوى السورة

«**تفسير الميزان**»: في السورة أمرٌ بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدّسة، وتنزيه ذاته المتعالية من أن يُذكر مع اسمه اسمُ غيره أو يُسنَد إلى غيره ما يجب أن يُسند إليه؛ كالخلق، والتدبير، والرزق، ووعدٌ للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بتأييده بالعلم والحفظ، وتمكينه من الطريقة التي هي أسهل وأيسر للتبليغ وأنسب للدعوة.

«**تفسير الأمثل**»: تحتوي السورة على قسمين من المواضيع:

الأوّل: يحوي خطاباً إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، يأمره الباري سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثمّ ذكر سبعاً من صفات الله عزّ وجلّ، لها صلة ربط بالأمر الربّاني إليه صلّى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: يتحدّث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التي تؤدّي إلى كلّ من السعادة والشقاء المطلقَين.

وفي آخر السورة يأتي التأكيد أنّ ما جاء في هذه السورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل وتناولته كتب وصحف الأوّلين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضيلة السورة

عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**من قرأها أعطاه الله عشر حسنات بعدد كلّ حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد** [عليهم السلام]».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شئتَ إن شاء الله**».

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة، بـ(الجمعة) و(سبّح اسم ربّك الأعلى)**».

وورد في روايات عديدة أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا إذا قرأوا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قالوا: «**سبحان ربّي الأعلى**».

وروي عن أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: صلّيت خلفه عشرين ليلة وليس يقرأ إلّا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾،

وقال: «**لو تعلمون ما فيها لقرأها الرجل كلّ يوم عشرين مرة، وأنّ من قرأها فكأنّما قرأ صحف موسى، وإبراهيم الذي وفّى**».

وعنه عليه السلام: «**كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يحبّ هذه السورة «..» وأوّل من قال سبحان ربّي الأعلى ميكائيل**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الآية:١.

الإمام الباقر عليه السلام: «**إذا قرأتَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فقل: سبحان ربّي الأعلى، وإن كنتَ في الصلاة فقل فيما بينك وبين نفسك**».

وجاء في بعض التفاسير أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الواقعة:٧٤، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**اجعلوها في ركوعكم**». ولمّا نزل قوله تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الأعلى:١، قال: «**اجعلوها في سجودكم**».

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الآية:١٤.

الإمام الصادق عليه السلام: «**من أخرج الفطرة**».

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الآية:١٥.

الإمام الرضا عليه السلام: «**كلّما ذكَر اسم ربّه صلّى على محمّد وآله**».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ الآيتان:١٨-١٩.

الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أفضتْ إليه صحفُ إبراهيم وموسى فائتمن عليها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً، فائتمن عليها عليٌّ الحسن، وائتمن عليها الحسنُ الحسينَ حتى انتهى إلينا**».

صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام

عن أبي ذرّ رحمه الله قال: دخلتُ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو في المسجد جالس وحده، فاغتنمت خلوته. إلى أن قال: قلتُ: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟

قال: **مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.**

قلت: يا رسول الله! وما كانت صحف إبراهيم؟

قال: كانت أمثالاً كلّها، وكان فيها: أيّها الملك المبتلى المغرور، إنّي لم أبعثْك تجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنّي بعثتك لِتَرُدّ عنّي دعوةَ المظلوم، فإنّي لا أردُّها وإن كانت من كافر. وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها صُنع الله عزّ وجلّ إليه، وساعة يخلو فيها لحظّ نفسه من الحلال، فإنّ هذه الساعة عونٌ لتلك الساعات، واستجمام للقلوب وتوديع لها. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، فإنّه مَن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو تلذّذ في غير محرّم.

قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟

قال: كانت عبراً كلّها، عجَبٌ لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ولمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ ولمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئنّ إليها؟ ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصَب؟ ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل؟

تحميل الآراء المسبقة على مداليل الآيات

مباني المفسّرين ناقصة

العلّامة السيد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

اختلف مفسّرو القرآن الكريم في مسالكهم بعدما عمل فيهم الانشعابُ في المذاهب ما عمل، ولم يبقَ بينهم جامعٌ في الرأي والنظر إلّا لفظُ «**لا إله إلّا الله، محمّدٌ رسول الله**»، فتفرّقوا في طريق البحث عن معاني الآيات، وكلٌّ يتحفّظ على متن ما اتّخذه من المذهب والطريقة.

فأمّا المحدِّثون، فاقتصروا على التفسير بالرواية عن السَّلَف من الصحابة والتابعين، فساروا وجدّوا في السير حيثما يسير بهم المأثور، ووقفوا في ما لم يؤثَر فيه شيء، ولم يظهر المعنى ظهوراً لا يحتاج إلى البحث، أخذاً بقوله تعالى: ﴿..وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا..﴾.

وقد أخطأوا في ذلك، فإنّ الله سبحانه لم يُبطِل حجّة العقل في كتابه، وكيف يعقل ذلك وحجّيته إنّما تثبت به! ولم يجعل حجّيةً في أقوال الصحابة والتابعين ونظرائهم على اختلافها الفاحش، ولم يدعُ إلى السفسطة بالتسليم بالمتناقضات والمتنافيات من الأقوال، ولم يندب إلّا إلى التدبّر في آياته، فرفع به أيّ اختلاف يُتراءى منها، وجعله هدًى ونوراً وتبياناً لكلّ شيء، فما بال النور يستنير بنور غيره، وما شأنُ الهدى يهتدي بهداية سواه، وكيف يتبيّن ما هو تبيانُ كلّ شيء بشيءٍ دون نفسه؟!

المتكلّمون والفلاسفة والصوفية

وأمّا المتكلّمون، فقد دعتهم الأقوال المذهبية على اختلافها أن يسيروا في التفسير على ما يوافقُ مذاهبهم بأخذ ما وافق، وتأويل ما خالف، على حسب ما يجوّزه قول المذهب.

واختيار المذاهب الخاصة، واتخاذ المسالك والآراء المخصوصة، وإن كان معلولاً لاختلاف الأنظار العلمية، أو لشيءٍ آخر كالتقاليد والعصبيات القومية، وليس ههنا محل الاشتغال بذلك، إلّا أنّ هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمّى تطبيقاً لا تفسيراً، ففرقٌ بين أن يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ أو يقول: ماذا يجب أن نحمل عليه الآية؟

فإنّ القول الأول يُوجب أن ينسى كلَّ أمر نظريّ عند البحث، وأن يتّكأ على ما ليس بنظريّ.

والثاني يُوجب وضع النظريات في المسألة وتسليمها وبناء البحث عليها، ومن المعلوم أنّ هذا النحو من البحث في الكلام ليس بحثاً عن معناه في نفسه.

وأمّا الفلاسفة، فقد عرض لهم ما عرض للمتكلّمين من المفسّرين، من الوقوع في ورطة التطبيق... حتّى أنهم ارتكبوا التأويل في الآيات التي لا تلائم الفرضيات والأصول الموضوعة التي نجدها في العلم الطبيعي...

وأما المتصوّفة، فإنهم لاشتغالهم بالسير في باطن الخِلقة، واعتنائهم بشأن الآيات الأنفسية دون عالم الظاهر وآياته الآفاقية، اقتصروا في بحثهم على التأويل، ورفضوا التنزيل، فاستلزم ذلك اجتراء الناس على التأويل، وتلفيق جمل شعرية والاستدلال من كلّ شيء على كلّ شيء، حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمّل، وردّ الكلمات إلى الزُّبُر والبينات، والحروف النورانية والظلمانية إلى غير ذلك...

* (تفسير الميزان: ج ١/ ص ٥ – ٨؛ ج ٣/ ص ٨٦ – مختصر)

الماديون من مُنتحلي الإسلام

وقد نشأ في هذه الأعصار مسلكٌ جديد في التفسير، وذلك أنّ قوماً من منتحلي الإسلام، في إثر توغّلهم في العلوم الطبيعية وما يشابهها، المبتنية على الحسّ والتجربة، والعلوم الاجتماعية المبتنية على تجربة الإحصاء، مالوا إلى مذهب الحسّيّين من فلاسفة أوروبا السابقين، فذكروا: أنّ المعارف الدينية لا يمكن أن تخالف الطريق الذي تصدّقه العلوم، وهو أنْ: «لا أصالةَ في الوجود إلا للمادة وخواصّها المحسوسة»، فما كان الدّين يُخبر عن وجوده ممّا تكذّبه العلوم ظاهره، كالعرش والكرسيّ، واللوح، والقلم، يجب أن يؤوَّل تأويلاً، وما يخبر عن وجوده ممّا لا تتعرّض له العلوم؛ كحقائق المعاد، يجب أن يوجّه بالقوانين المادية، وما يتّكئ عليه التشريع من الوحي، والمَلَك، والشيطان، والنبوّة، والرسالة، والإمامة، وغير ذلك، إنّما هي أمور روحية، والروح مادية ونوع من الخواصّ المادية، والتشريع نبوغٌ خاصّ اجتماعيّ يبني قوانينه على الأفكار الصالحة، لغاية إيجاد الاجتماع الصالح الراقي.

وذكروا: أنّ الروايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للاعتماد عليها، إلّا ما وافق الكتاب، وأمّا الكتاب فلا يجوز أن يُبنى في تفسيره على الآراء والمذاهب السابقة المبتنية على الاستدلال من طريق العقل الذي أبطله العلم بالبناء على الحسّ والتجربة، بل الواجب أن يستقلّ بما يعطيه القرآن من التفسير، إلّا ما بيّنه العلم!....

ولا كلام لنا ههنا في أصولهم العلمية والفلسفية التي اتّخذوها أصولاً وبنوا عليها ما بنوا، وإنما الكلام في أنّ ما أوردوه على مسالك السَّلف من المفسّرين (أنّ ذلك تطبيق وليس بتفسير) واردٌ بعينه على طريقتهم في التفسير، وإنْ صرّحوا أنّه حقّ التفسير الذي يفسّر به القرآن بالقرآن. ولو كانوا لم يحملوا على القرآن في تحصيل معاني آياته شيئاً، فما بالهم يأخذون الأنظار العلمية مسلَّمةً لا يجوز التعدّي عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف إصلاحاً.

وأنت بالتأمّل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: أنّ الجميع مشتركةٌ في نَقصٍ - وبئس النقص - وهو تحميل ما أنتجته الأبحاث العلمية أو الفلسفية من خارج، على مداليل الآيات، فتبدّل به التفسير تطبيقاً وسُمِّي به التطبيق تفسيراً، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازات...

والحقّ، أنّ الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، وأنّ البيان الإلهي والذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي إلى نفسه، أي أنّه لا يحتاج في تبيين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصوّر أن يكون الكتاب الذي عرّفه الله تعالى بأنّه هدى، وأنّه نور، وأنّه تبيانٌ لكلّ شيء، مفتقراً إلى هادٍ غيره، ومستنيراً بنور غيره، ومَبيناً بأمرٍ غيره؟

كيف يُتصوّر أن يكون الكتاب الذي عرّفه الله بأنّه تبيانٌ لكلّ شيء، مفتقراً إلى هادٍ غيره؟! فالحقّ، أنّ البيان الإلهيّ هو الطريق الهادي إلى نفسه ولا يحتاج في تبيين مقاصده إلى غيره